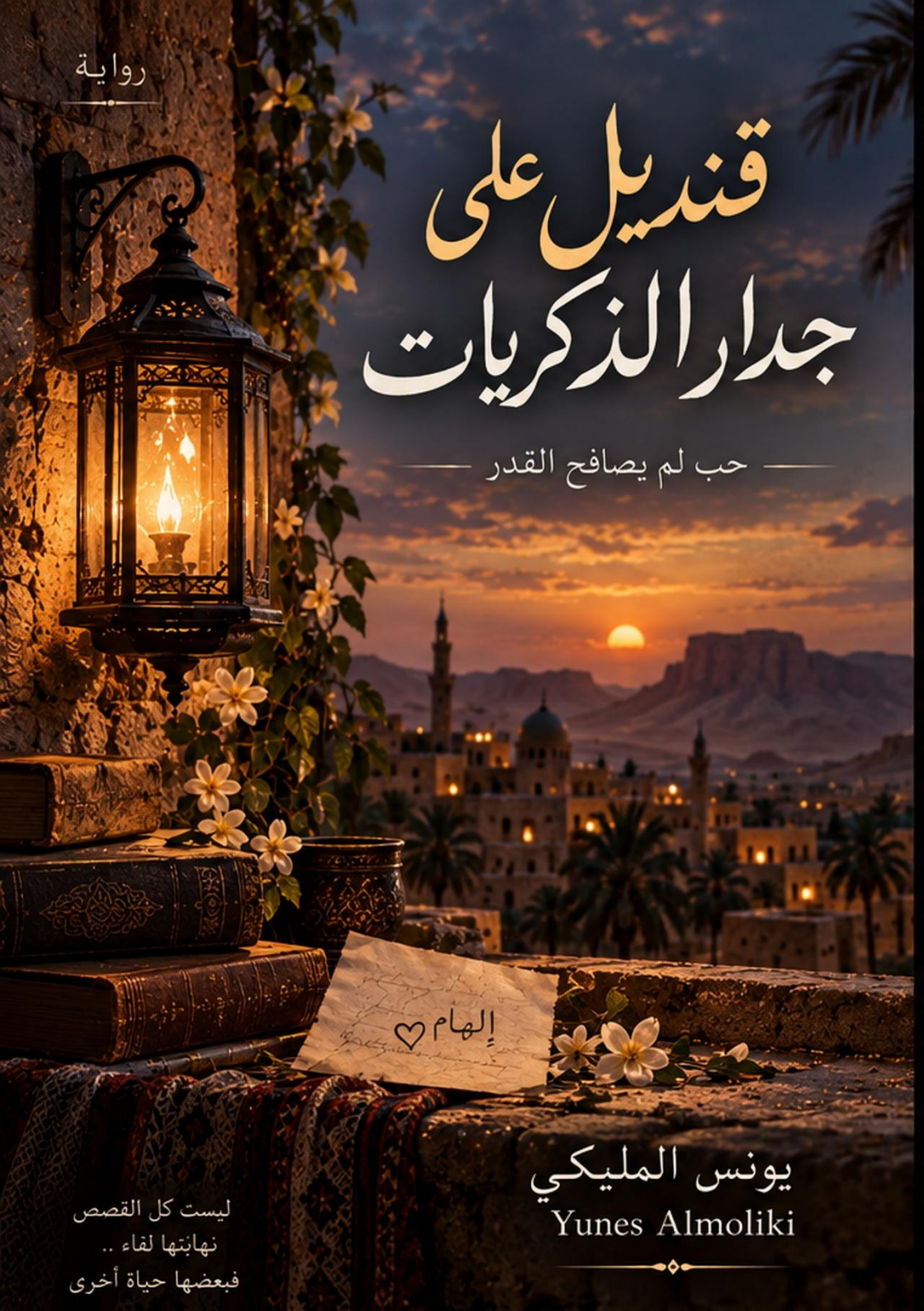
رواية

قنديل على جدار الذكريات

حب لم يصافح القدر



يونس المليكي
Yunes Almoliki

ليست كل القصص
نهايتها لقاء ..
فبعضها حياة أخرى

قنديل على جدار الذكريات

حبٌّ لم يصافح القدر

يونس المليكي

إهداء

لقلبٍ عرف الحبَّ لأول مرةٍ معي

لزوجتي

وللمحبّين

ولكلِّ متزمّتٍ يقول: الحبُّ لا يليق بك

إطلالة

هذه الرواية من محض الخيال، وإن كنتُ قد كتبتُها كما يُكتب ما وقع.

كلُّ اسمٍ فيها، وكلُّ مكانٍ ومهنةٍ وتاريخ، من صنع الخيال؛ وإن وجدتَ فيها شبهًا بأحد، فهو شبهُ القلوب لا شبهُ الوقائع، فما من عاشقٍ إلا وله في هذه الحكاية سطر.

ما قبل البداية

ما أقسى حرَّ هذه الصحراء! حرٌّ لا يقف عند الجلد، بل ينزل إلى الصدر فيجفّف ما فيه.

ومع شدّة هذه الحرارة التي قد تكوي الأجساد، إلا أنك بمجرد أن تقف على كثيبِ رملٍ فيها يسحرك جمالُ تمايل كثبانها، ويأسرك المنظر الخلّاب عند الغروب، فلا فرق بين بحرٍ وصحراء، بل لا أبالغ إن قلت: منظر الصحراء أجمل.

لا أعلم، هل أنا أمدحها مع غناها عن مدحي، أم أنه سرٌّ وقَرَ في قلبي فعشقتُ رمال الصحاري؟

ولا يزال الاستغراب يراود أفكاري كلما مررتُ على صفراءَ مُقحِلة: كيف يعيش أهلها فيها؟!

صدقَتْ أمي عندما قالت: إنّ أهل كلِّ بلدٍ أشدُّ صلابةً من بلدهم مهما كان مناخها.

إلهام... لقد قررتُ الرحيل، ورحيلي ليس سهلًا أبدًا، وكيف يكون تركُ الجنةِ سهلًا على ساكنيها؟

يضطرب قلبي وما يكاد قولُ الشاعر يصله:

وخفوقُ قلبي لو رأيتِ لهيبَه . يا جنّتي . لرأيتِ فيه جهنّمُ

لا أعلم أيّهما أشدُّ خيانة: رحيلي الاضطراري، أم ما سأكتبه عنكِ؟

لم يعد قلبي قادرًا على كتمان ما في داخله، أصبح يفيض بمشاعر مختلطةٍ متلوّنة، يغلب عليها عشقٌ لا تبلغه بحور الشعر العربي بكل ما قيل فيها؛ وكيف لاثني عشر مليون مفردةٍ أن تطيق حملَ صفاتك؟ عيناكِ وحدها بحرٌ يغرق فيه كلُّ بحّار.

لستِ شيئًا أستطيع جمعه في سطورٍ ومحضِ كلمات، ولكن ربما يرتاح قلبي بقليلٍ من البوح، فوجودكِ في قلبي يا إلهام أشبهُ بدمي؛ من قلبي أرسلكِ إلى كلِّ جسمي لأعيش بك.

أترين كم هو صعبٌ أن أفارقكِ في وادٍ غير ذي زرع؟

يكون الرجل شجاعًا ويتباهى كثيرًا بقوّته وصلابته، وهذا ما أفعله دائمًا، ولكن خارت قواي أمامكِ ولانت لكِ صلابتي، وليت المسافات تقاصرت لأربط قلبي على أسوار قفصكِ الصدري.

بين جنبات صدري وسورِ عظامه نشبت حربٌ ليس للزمن قدرةٌ على إخماد لهيبها، وأنتِ يا إلهام بطلةُ هذه المعركة؛ وربما تمرُّ الأيام فتهدأ طبول الحرب، ولكنّ نارها وإن صُبَّت عليها البحار لا تُطفئها، وليس لتناهيد الندم بعد المعارك فائدةٌ يا عزيزتي.

سأطلب منكِ طلبًا: إذا بلغكِ عنّي هذا الأثر، لا تخبري أحدًا أنني أعنيك، لكيلا تشير إليكِ البَنان؛ أريدكِ علامةً مجهولةً في ذهن الزمن، حاضرةً في ذهني أنا العاشق الولهان، وذلك جزءٌ من غيرتي عليكِ ولستُ أبالغ.

وها أنا أبدأ صراعًا حقيقيًّا مع الناس، لا أعلم أيَّ ظنٍّ سيدور في خلجاتهم وأيَّ بهتانٍ سيرمونني به.

إن قالوا يعشق، فليس العشق حرامًا؛ وإن قالوا مُلتزمٌ متديّن، فلم يكن الدين يومًا معاكسًا للحب؛ وإن قالوا لا يليق بكَ، فأنا أعلمُ بما يليق بي وليس أحدٌ أحرصَ مني عليَّ.

فهذا عُبيد الله بن عبد الله بن عتبة، أحدُ الفقهاء السبعة، عشِق حتى اشتهر أمره ولم يُنكَر عليه، وعُدَّ ظالمًا من لامه، ومن شعره يقول:

كتمتَ الهوى حتى أضرَّ بكَ الكتمُ ... ولامكَ أقوامٌ ولومُهمُ ظلمُ

يعلم الله كم أريد أن أتغزّل فيكِ، وكم تريد نفسي أن تعبّر لكِ عن شوق روحي، ولكن في نفسي خوفٌ من عتاب الضمير؛ ولتضعي تحت كلمة الضمير مليون خط... ولكني أعشقك.

ليت رملَ الصحراء يشعر بغيث حبك.

لا تسأليني لماذا على الرمل أن يشعر؟ سأقول لكِ: وإن كان رمل الصحراء لا يُنبِت، فإنه سيُنبِت إن كان الغيثُ الذي ينزل عليه كغيث عشقكِ الذي أمطرتِ به قلبي.

لا تقرئي هذه الحروف كما كنتِ تقرئين حروفي السابقة، فإنّ لوعة الفراق لها أثرٌ في ترتيب معاني الكلمات في روحي.

أعلم يا إلهام أنّ الأرض قد أوجعتكِ كثيرًا، وأنا نصحتكِ يا قمري أن تظلّي في مكانكِ ولا تنزلي؛ فاجعلي من هذه الحروف سُلَّمًا تصعدين به إلى مكانكِ، لتُريهم أنكِ أقوى من ترّهات الأرض.

الفصل الأول: العودة إلى الديار

كانت المدينة تلوح من بعيدٍ حين طلبتُ من السائق أن يقف.

. هلّا أنزلتني هنا؟

. نحن على أطراف المدينة يا أخي، ولم نصل المحطة المعهودة بعد.

. أعلم، ولكني أفضّل أن أمكث هنا هذه الليلة، فالذكرياتُ تسابقني ودمعي أسرعُ منها؛ ثم إني أريد أن أصل ودعاءُ مستيقظة، فهي لا تعرفني إلا من الهاتف.

نظر إليّ في المرآة نظرةَ من لا يفهم شيئًا مما أقول.

. ومن دعاء؟

. دعاء أختي الصغرى؛ فرّقت بيننا الحرب أربع سنين، ولا غريبَ عليك ما دمتَ تعيش في هذا البلد.

ولم أقل له الباقي.

فأنا كتابٌ مفتوحٌ طُمِست معظم عباراته، والعابرون على أول صفحةٍ منّي يعجزون عن فهم تلك الجُمل الخافتة، فأضطرّ دائمًا لتوضيح ما خفي؛ فالناس لا ترحمك إن لم تكن واضحًا معهم، ولكني في تلك الليلة كنتُ قد تعبتُ من الوضوح.

أنزلني عند فندقٍ صغير، وأكمل طريقه وحده، ووقفتُ أنا في الظلام أنظر إلى الأضواء المتفرّقة، كأنّ المدينة أضاءت لغيري.

كان في الغرفة سريرٌ وكرسيٌّ وقنديلٌ قديمٌ معلَّقٌ على الجدار، من تلك القناديل التي أبقاها أصحاب الفنادق بعد أن جاءت الكهرباء؛ لا لأنهم يحتاجونها، بل لأنّ نزعها يترك في الجدار أثرًا أقبح منها.

وضعتُ الحقيبة على السرير، وأخرجتُ منها الشيء الوحيد الذي حملتُه بيدي طوال الطريق ولم أضعه في صندوق السيارة.

ثم جلستُ تحت القنديل وفتحتُه.

ولم أنم.

❖

في الصباح، وقبل أن أطرق الباب، كان أحمد قد فتحه، وخلفه دعاء تحمل حقيبة مدرستها ولا تدري أتذهب أم تبقى.

. لقد انتظرناك كثيرًا.

. أنا لن أذهب إلى المدرسة اليوم.

. بل تذهبين يا ريحانة العائلة، وأنا بانتظاركِ إذا عدتِ؛ فلا مكان في هذا الزمان لغير المتعلّم، وخاصةً الأنثى، فالتعليم ضروريٌّ لها بقدر الرجل تمامًا.

خرجت وهي تلتفت إليّ ثلاث مرات، ووقف أحمد يضحك من التفاتها، ثم قال:

. ما رأيك أن نصعد إلى التلّة كما كنّا؟ عندي كلامٌ كثير، ولديك ما هو أكثر.

صعدنا إلى مقعدنا القديم من الحجر، وقد أخذ معه إبريقه وكوبين.

ولمّا صبّ لي الكوب الأول نظر في وجهي نظرةً طويلة:

. عيناك حمراوان. ألم تنم في الفندق؟

. نمتُ قليلًا.

وكذبتُ عليه في أول ساعةٍ من لقائنا.

. أتعلم يا أحمد أنّ الأصدقاء كنزٌ لا يُقدَّر بثمن؟ صحبتهم راحة، والحديث معهم طمأنينة، وذكرياتهم سعادة؛ وأنا أُفضّل أن أناديك صديقي أكثر من أخي، وصحيحٌ أنّ الأخوّة أبلغ، ولكنّا أخوان من ربّ العالمين، وأريد أن أُعمّق صفة الصداقة في حديثنا.

. لك ذلك يا صديقي وأخي، ولكن دعني أشكو لك أولًا؛ فقد خاصمتُ أدهم منذ شهرين ولم نتصالح.

. وعلامَ خاصمتَه؟

. لأنه لا يفهم! أدعوه فيتأخر، وأمزح فيغضب، وأقول له الرأي فيسكت ثم يفعل عكسه.

. أتدري ما عيبك يا أحمد؟ أنت تريد الناس نسخًا منك، فلا تحاسبهم بمفاهيمك وطبعك؛ فهذا كثير المزاح وهذا قليله، وهذا متأنٍّ وهذا متسرّع، وهذا يفهم بالإشارة وهذا لا يفهم ولو قلتَ ألف حرف، كلُّ الذي عليك

أن تنصح إذا رأيت الغلط، لا أن تجعلهم يحبّون ما تحبّ ويكرهون ما تكره، فهذا التعامل يجعلهم ينفرون منك.

سكت قليلًا وهو يقلّب الكوب في يده، ثم قال:

. ومن علّمك هذا الكلام؟ لم تكن تقوله قبل سفرك.

فضحكتُ ولم أُجب، لأن الجواب كان اسمًا لا أقدر على نطقه بعد.

. صمتُك يخبرني أن هناك حكاية.

. بل حكاية ومعركة، ولا أدري من أين أبدأ لك؛ هل أحدثك عن الألم، أم عن السعادة، أم عن الناس الذين عشتُ بينهم؟

. ابدأ من حيث يبدأ قلبك.

فنظرتُ إلى الأفق، وكان الصباح لا يزال طريًّا، وقلت:

. إذًا سأبدأ من عينين.

❖

من دفتر إلهام

قالوا لي إنّ الغريب الذي كان يكتب سافر من المدينة، ولم أسأل أحدًا كيف عرفوا، ولا متى كان ذلك؛ فإن سألتُ عرفوا، وإن عرفوا انتهيت.

جلستُ في الغرفة وأنا أعدُّ في رأسي كلَّ الأشياء التي لم أقلها له، فوجدتها أكثر من كل ما قلته.

ويعجبني فيه أنه يظنّ أني كنتُ الصفحة البيضاء وأنه هو القلم، ولا يدري المسكين أنّ نصف ما تعلّمه منّي كنتُ أتعلّمه معه في اللحظة نفسها.

ولستُ أكتب هذا لألومه، بل لأني لا أجد أحدًا أقوله له.

هذا الدفتر آخر مكانٍ في الدنيا لا يسألني فيه أحدٌ عن نيّتي.

الفصل الثاني: لقاءٌ بالعيون

في المعهد، وفي ممرٍّ لا أذكر منه اليوم غير ضوئه؛ ضوءٌ ينزل من نوافذَ عاليةٍ فيقطع الممرَّ أعمدةً بيضاء. فيه وقفتُ أتحدث في الهاتف بعد أن استأذنتُ من الدكتور، أذهب في الممرّ وأعود، وهناك فتاةٌ تجلس على إحدى الشرفات لم أكن منتبهًا لها.

أنهيتُ مكالمتي، فنادتني:

. أستاذ سليم!

نظرتُ إليها... ولكن أيّما نظرة.

كانت عيناها ساحرتين، طرفَتْ برمشها لتُكمل حديثها، ولكني كنتُ قد نُقلتُ إلى عالمٍ آخر أسبح في بحر تلك العينين؛ كأن عينيها بحرٌ زُيّن شاطئه بأشجارٍ عالية، ورموشها الطويلة أخذت قلبي إلى مراقي المتيَّمين، وما أصدقَ فيهما قول جرير:

إنّ العيون التي في طرفها حَوَرٌ ... قتلننا ثم لم يُحيِينَ قتلانا

. صديقتي في الداخل، هل يمكن أن تطلب من الدكتور أن يسمح لها بالخروج؟

. ما اسمها؟

. نجلاء.

. آه، أعرفها؛ ولكن ما رأيكِ أن تستأذني أنتِ من الدكتور؟ سيأذن لها إذا كلّمتِه بنفسك.

. حسنًا.

رجعتُ إلى القاعة وتركتُ الباب مفتوحًا كي أُسهّل لها الأمر، فطرقت الباب وطلبت الإذن لزميلتها؛ لكنّ مزاج الدكتور كان متعكّرًا، فنهرها ووبّخها أمام الجميع، ثم قال لها إن الوقت قد قارب على الانتهاء.

ضحكتُ كثيرًا لذلك الموقف، ولم أكن أعلم أنه موقفٌ سأذكره كلَّ حياتي.

خرجنا وكانت لا تزال في الممرِّ منتظرةً صديقتها، وكانت هذه المرة الثانية التي أنظر فيها إلى عينيها، وعينُ الغزال لا تساوي أمامهما شيئًا؛ لقد رمَتْني بداء عينيها وانسلّت.

ومن شدّة إعجابي مشيتُ خلفهما حتى خرجتا من البوابة، ووقفتُ أنظر إليها تبتعد حتى توارت في طرف الشارع، ولم أعهد نفسي مشيتُ وراء فتاةٍ قبلها.

❖

أما الحكاية الأخرى فقد بدأت من هاتفي.

كنتُ أكتب كلماتي المعتادة وبعض الخواطر والقصص التي أتذكرها من أيام الطفولة وأنشرها في قناتي، وبالصدفة ـ بل أظنه القدر ـ أتاني رقمٌ غريبٌ يحدثني على الخاص، يبارك لي حروفي ويحثّني على الاستمرار.

حاولتُ كثيرًا أن يخبرني باسمه فرفض تمامًا، وكنتُ في شكٍّ وقلبي ينبض مع كل حرف، وفي داخلي إحساسٌ أنها روحٌ جميلةٌ جدًّا.

ثم مرّ عليّ يومٌ ثقيل، ضِقتُ فيه بنفسي وبالغربة وبكلِّ شيء، فكتبتُ حروفًا تُبكي الحجر ونشرتها، فدخل يسألني عن حالي.

كان ذلك السؤال مثل الغيث الذي أمطر على صدري القاحل، وتعويضًا لدموعي المهدَرة؛ فقد كنتُ وحيدًا في همّي وحولي كثيرٌ من الزملاء يشاركونني سكن الغربة، ولم يكن يعلم أحدٌ عن اضطرابي الداخلي.

فبدأتُ أفتح لهذا المجهول مهجتي وأخبره كلَّ ألمي، حتى قال بدون مقدمات:

. هل تحتاج إلى مال؟

. لا، لا أحتاج.

فأقسم أنه سيعطيني، فقط أخبره باسمي الرباعي؛ وكانت تلك فرصتي الوحيدة.

. أقبل المال بشرطٍ واحد: أن تخبرني ما اسمك؟

. لا يمكنني ذلك...

وبدأ يسوق الأعذار، فلم تتمالكني نفسي:

. أسألك بالله، من أنت؟

. لماذا سألتني بالله؟

بدأ قلبي يخفق، وروحي تنتظر الرد، وإحساسي يقول: إن...

. أنا اسمي إلهام، بنتٌ تدرس معك في نفس المعهد ولكن في قسمٍ آخر.

ثم أتبعتها بسطرٍ آخر:

وأنت لم تخبرني بعدُ لماذا كنتَ تبكي.

فقلت لها: لا تسأليني عن هذا، لا أريد أن أبوح به.

فقالت:

إذًا أنت تشتكي إليّ من الوحدة، وتغلق عليّ الباب في الوقت نفسه.

فكتبتُ لها: الإنسان مثل البحر تمامًا، عميقٌ جدًّا، ولا يعلم كلُّ الناس ما في عمق البحر؛ وهناك خصوصياتٌ إن لم أُشاركها معكِ فلا

يعني ذلك أني لا أثق بك، فمهما كان القرب فالخصوصية لا تعني فقدان الثقة، وليت الناس يفهمون بعضهم على هذا الشكل.

فتأخّرت، ثم كتبت:

كلامٌ جميل، وسأقبله منك اليوم.

ولكن اعلم أنّ للبحر شاطئًا يقف عليه الناس، وله من ينزل فيه؛ فإن أردتني على الشاطئ فأنا واقفة، وإن أردتني في العمق فلا تُخرجني منه كلما ضاق صدرك.

فقلتُ في نفسي: من أين لهذه الفتاة بهذا الكلام؟

ولم أُجب.

اضطرب فؤادي كثيرًا؛ هل هي حقًّا فتاة؟ أم هو صديقي الذي يختبرني دائمًا بتقليده أنه فتاةٌ ويفشل في كل مرة؟

قلتُ في نفسي: لأجعل الأمر طبيعيًّا جدًّا؛ وبدأتُ أسأل الأسئلة المعتادة التي تُقدَّم لكل غريب، عن القسم والمحافظة والعمر، حتى

اطمأننتُ أنها فتاةٌ وليست صديقي المغفّل، ولكني بقيتُ حريصًا أن أتأكد.

وفي الصباح ذهبتُ مباشرةً نحو قاعات قسمها، والتقيتُ بصديقٍ لي هناك.

. هل عندكم فتاةٌ اسمها إلهام؟

. نعم، يوجد.

كفَتْني «نعم» عن كلِّ إجابة، ولا أعلم لماذا اقتنعت روحي ورضيت؛ ولكننا بشر، رجالٌ ضعافٌ أمام عواطفنا بل تخطفنا نظرة.

. وأيُّ واحدةٍ هي؟

لم يستطع أن يشير إليها، ونحن في مجتمعٍ محافظ لا يمكن أن تشير فيه إلى فتاةٍ بغير سبب أو تقف معها بغير حاجة، وإلا كنتَ في نظر من يراك قليل أدب؛ وأنا أحمدُ الله أننا في مجتمعٍ تعيش فيه المرأة بكرامتها، لا يحقُّ لأحدٍ المساس بها ما لم يأتِ عن طريق أهلها ليأخذ الإذن الشرعي مرفوع الرأس، ولا تزال الغيرة عندنا كما كانت عند العرب القدماء:

وأغضُّ طرفي إن بدت لي جارتي ... حتى يواري جارتي مأواها

❖

وأولُ خصامٍ وقع بيننا لم يكن على حبٍّ ولا غيرة، بل على كتاب.

كنّا في ذلك الوقت نحدّد موضوعًا من الليلة لنتناقش فيه في الليلة التالية، وقد كانت تلك المسائل من أجمل أعذارنا لنتحدث كلَّ يوم؛ فذكرَتْ كتابًا مشهورًا وقالت:

. رأيي أن الكتاب ليس جميلًا، لأنه يُغيّب دور الإنسان ويجعله كأنه لا قدرة له.

. كلُّ شيءٍ بقدر، وهذا لا ينكره أحد، ولكن على الإنسان بذل الأسباب.

. وهذا ما أخبرك به، الكتاب لا يدع للإنسان أيَّ سبب.

فاتفقنا أن أقرأه أولًا ثم أردّ، وبدأتُ من ليلتها، وكانت المفاجأة: رددتُ على مفهومها بأكثر من خمسة ردودٍ من أول سبعين صفحة،

وكنتُ أرسل لها صور الصفحات التي فيها ردٌّ صريح، صفحةً بعد صفحة، حتى امتلأت الشاشة بينها وبين عينيها.

فكتبت أخيرًا كلمةً واحدة:

هو رأيي، ولكلِّ شخصٍ رأي.

فقلت لها: الرأي يكون فيما لم نجد دليلًا عليه، أو فيما له عدة مفاهيم كلُّها محتملة، أو في شيءٍ لم يقع بعد؛ أما هذا فخطأٌ، وها أنا أوضّحه لكِ فلا يبقى لرأيكِ مجال.

سكتَتْ ليلتين كاملتين، وفي الثالثة كتبت:

معك حقٌّ في الكتاب، وليس معك حقٌّ فيّ.

أنت لم تُرد أن تُصحّح لي فهمًا، أنت أردتَ أن تُريني أنك أعلم؛ ولو أردتَ الأولى لكفتك صفحة، ولكنك أرسلتَ سبعين.

قرأتُ ردها ثلاث مرات، ثم وضعتُ الهاتف وقمتُ أمشي في الغرفة.

كنتُ أعلم أني على صواب، وكنتُ أعلم في الوقت نفسه أني قد جرحتُها، وهذا أولُ درسٍ تعلّمته منها: أنّ الحقَّ وحده لا يكفي، وأنّ الرجل قد يكسب المسألة ويخسر القلب الذي كان يناقشه.

فكتبتُ لها: أنا أعتذر.

فردّت:

لا تعتذر، بل ناقشني مرةً أخرى غدًا، ولكن بصفحةٍ واحدة.

❖

من دفتر إلهام

يظنّ أني سكتُّ ليلتين لأني غضبت، والحقيقة أني سكتُّ لأني كنتُ أقرأ الكتاب من أوله.

قرأتُه كلَّه، ووجدته محقًّا في أكثره؛ ولكني لم أُخبره، لأنّ الرجل إذا علم أنه انتصر مرةً؛ طلب الانتصار كلَّ مرة.

ثم إني وجدتُ في نفسي شيئًا غريبًا: أني أحببتُ أن يجادلني.

فما جادلني أحدٌ من قبل، كان الناس حولي إما يأمرونني وإما يجاملونني، وهو أولُ من عاملني كأنّ لي عقلًا يُخطئ ويُصيب.

وهذه ـ لو يدري ـ أخطر هديةٍ أعطاها لي.

الفصل الثالث: أخي وأختي

كنّا في تلك الأيام ننادي بعضنا: أخي، وأختي؛ وهي خطواتٌ من خطوات الشيطان يمشيها الاثنان وهما يظنّان أنهما في طريقٍ آمن، لأنّ الاسم إذا كان بريئًا ظنّ صاحبه أنّ ما تحته بريء.

كنتُ أنتظر حديثها كلَّ ليلةٍ بشوق، وتنتظرني؛ أشعر بالفراغ إن لم أحدّثها، ومجرد رسالةٍ منها تضيء أركان وجداني المعتمة وتروي جفافي وصحراء روحي.

وذات ليلةٍ حدّثتها عن الصحراء وأهلها، وقلتُ لها كلامًا كنتُ أحسبه مديحًا:

ـ أنتِ لستِ منهم يا إلهام، أنتِ ألطف من أن تكوني بدوية؛ فالبدو أجلافٌ قساة، لا منفذ للمشاعر إلى أرواحهم.

فتأخّر ردُّها طويلًا، ثم جاء بحروفٍ لم أعهدها منها:

ومن أخبرك؟

أنت لم ترَ منهم أحدًا، وإنما سمعتَ عنهم من أهل المدن، وأهل المدن يحكون عن البادية كما يحكي الغريب عن بيتٍ لم يدخله.

وأنا لا أدافع عن قومي لأنهم قومي، بل لأنك حكمتَ قبل أن تعرف؛ وهذه هي العلّة نفسها التي عبتَها عليّ في الكتاب.

فسكتُّ، لأني وجدتُ سيفي في يدها.

ثم كتبت:

اذهب إليهم، ثم قل لي رأيك.

وقد كان.

ذهبتُ بعدها بشهرين في عملٍ إلى جهةٍ بعيدةٍ في تلك الصحراء، فاستضافني رجلٌ منهم شهرًا كاملًا؛ ولم أجد أكرم منهم ضيافة، وفي أول مساءٍ صعدتُ سطح المنزل كما كنتُ أفعل في قريتي، لأنظر إلى المزارع التي تُسوّر القرية، فناداني صاحب البيت من أسفل بصوتٍ فيه حرج:

ـ انزل يا بنيّ.

نزلتُ مستغربًا:

. لماذا؟

. نحن نعدُّ ذلك عيبًا في عُرفنا؛ كيف يصعد الرجل إلى سطح منزله ويظلُّ فيه، وقد يُطلُّ بقصدٍ أو بغير قصدٍ على حرمات جاره؟ وأكثر الناس هنا بيوتهم أقلُّ منّا طوابق، أو في خيام، أو يستريحون في أحواش منازلهم.

فوالله ما وجدتُ ما أقول.

ثم نزلتُ أجلس معه في الحوش، والليل يهبط على الرمل فيبرد فجأةً كأنّ أحدًا أطفأ نارًا تحت الأرض؛ وهو يصبُّ لي القهوة ويحدّثني عن مواسم المطر كما يحدّث الرجلُ الرجلَ، لا كما يحدّث صاحبُ البيت ضيفَه.

رجلٌ يمنعك من منظرٍ جميلٍ حفاظًا على سترِ جاره، أيُّ أدبٍ هذا؟ ومن تلك اللحظة علمتُ كم كنّا نظلمهم حين نتخيّلهم وحوشًا ضارية؛ وعلمتُ أنّ في الناس شدّةً في مواطن الشدّة، ولينًا في مواطن اللين، وأنّ الغريب لا يعرف من القوم إلا وجههم الذي يواجهون به الغرباء.

وكتبتُ لها من هناك رسالةً واحدة: كنتِ على حق، وأنا كنتُ جاهلًا؛ فأنا في حياتي كلها أسمع قصص السرقة والعصابات في المدن أكثر بكثيرٍ مما في البوادي.

فردّت:

لا تجعلها مديحًا الآن، فقد ظلمتَهم بجهلٍ ثم تمدحهم بجهل.

قومي فيهم الكريم وفيهم القاسي، مثل كلِّ الناس؛ كلُّ ما أردته أن تراهم بعينك لا بعين غيرك.

❖

ومرّت شهورٌ ولا يعلم بنا أحد، حتى أتَتْ ليلةً تستأذنني:

ـ أريد أن أخبر سلمى.

ـ ومن سلمى؟

ـ جارتنا، تكبرني بقليل، وهي صديقة طفولتي وتوأم روحي.

ـ لا يا إلهام، النساء لا يكتمن السر.

فردّت في الحال، ولم تنتظر كعادتها:

ومن أين جئتَ بهذه؟

أما رأيتَ بيوت المتزوجين؟ كم من مشكلةٍ تقع في البيت وتنتهي ولا يخرج منها حرف؟ وكم من رجلٍ يحمل همًّا لا يبوح به إلا لامرأته، فلا يُنشر السر؟ الرجال والنساء في كتم السرّ سواء يا سليم، فيهم من يُفشي وفيهم من يكتم؛ وأنتم تقولون هذا الكلام ثم لا تسمّونه ظلمًا لأنكم اعتدتم أن تقولوه.

ثم إنك أنت الذي حدّثتَ صديقك عني في اليوم الأول لتسأل عن اسمي.

فما وجدتُ مخرجًا، فأذنتُ لها.

وكان إذنًا مباركًا؛ فقد صارت سلمى بعد ذلك بمثابة أختٍ كبيرةٍ لنا، بل كانت الناصح والمعلّم وبيت السرّ، ولها دورٌ كبيرٌ في إخراجنا من بعض مواقفنا الطائشة، وما أفشت حرفًا إلى اليوم.

ويُدهشني أن يبذل بعض الأصدقاء الكثير لأجل أصدقائهم دون مقابل؛ فقط شعورُ الصداقة وفطرة الخير هي التي تحرّكهم.

❖

ولم يكن كلُّ خلافنا ينتهي هكذا.

فقد جرَّنا الحديث ليلةً إلى ما يقوله الناس عن الحجاب والحشمة، وأنّ الدين قيّد حرية المرأة وعطّل حقوقها، فاندفعتُ أردّ:

. هذا عُقمٌ في فهم الدين؛ فالدين هو الذي يحمي المرأة ويكفل لها حقوقها، وشرع لها التقاضي، وأباح لها الحديث مع الرجال لحاجتها، والتجارة، ودخول سوق العمل، ولم يحرمها شيئًا مما للرجل، إنما طلب منها الحشمة فقط. أما مدّعو الحضارة فيريدون هتك سترها بحجة الحرية، ويحمّلونها ما لا تطيق بحجة المساواة، فتصبح عندهم آلةً للمتعة يتناقلها الرجال.

فقالت:

كلامك جميل، وأنا أوافقك في أكثره.

ولكن أجبني عن سؤالٍ واحد: أنت الذي تدافع عن سترتي، لماذا تطلب مني أن أحفظ رقمك في هاتفي باسم فتاة؟

أنت تريد لي دينًا في العلن، وحيلةً في السرّ.

فما ردَدْتُ عليها تلك الليلة.

وقلتُ في نفسي ما لم أستطع أن أقوله لها: إنها محقّةٌ في السؤال، وإني محقٌّ في الخوف عليها، وإنّ الرجل قد يصدق في مبدئه ويكذب في تطبيقه، وأنّ أصعب ما يواجه المرء أن تأتيه الحجّة من فم من يحبّ.

❖

وليلةً ثالثةً حدّثتها عمّا يدور تحت الطاولة ولا ينتبه له الشباب:

. هناك فرقٌ كثيرة وطوائف وجماعاتٌ حزبية، وكلُّها تدّعي الصلاح في برنامجها وخيريّتها المطلقة؛ فإن لم تأخذكِ هذه إلى صفّها أخذكِ الآخر، سواءٌ شعرتِ أنكِ تنتمين أم لم تشعري، يكون ذلك بغرس الفكرة في مفهومكِ، أو جعلكِ ضمن جمهورها، أو إدخال مفهومٍ مغلوطٍ إلى

ذهنك؛ فتصيرين من حيث لا تشعرين تابعةً لهم، أو مروّجةً لفكرتهم، أو ناشرةً لإشاعاتهم.

فقالت:

هذا كلامٌ صحيح، وأخافني.

ثم خطر لي بعده سؤال: وأنت، من الذي زرع فيك ما تقوله لي الآن؟

أنت تحذّرني من جماعةٍ تأخذني وأنا لا أشعر، وتحدّثني كلَّ ليلةٍ عن الفرقة الناجية والكتب التي أقرؤها والتي لا أقرؤها؛ فما الفرق بينك وبينهم إلا أنك تحبّني؟

وأنا لا أتّهمك، ولكني أقول: من يخاف على غيره من التبعية عليه أن يسأل نفسه أولًا لمن يتبع هو.

فوالله لقد وقفتُ عند سؤالها ليالي.

ثم قالت لي مرةً أخرى:

أليست مواقع التواصل أصل هذا كلِّهِ؟ أهلي يقولون إنها فسادٌ كلُّها.

فقلت: هذا مفهوم متحجّري الفكر؛ ففيها العلم والمعرفة والتجارة والصدقة ونشر الفضيلة، وقد قرّبت المسافة بين أبعاد العالم المترامي، وفيها كذلك كلُّ أنواع الشرّ لأصحاب النفوس الضعيفة، والإناء لا يُلام على ما يُصبّ فيه.

فقالت:

اتفقنا.

ولكن لا تنسَ أنّ أنا وأنت من هذا الإناء.

❖

ومع ذلك، لم يكن حديثنا كلَّه جدلًا.

كانت إذا سألتني عن عائلتي تقول: كيف حالها أمي؟ وكيف حاله أبي؟ كأنها جزءٌ من عائلتي الحقيقية، بينما كنتُ أعدّها كلَّ عائلتي في غربتي.

وكان لنا وقتٌ لا نتنازل عنه: بعد العشاء بساعة.

أصعد إلى سطح السكن ومعي الهاتف وبطانية، فأجلس مستندًا إلى خزّان الماء حيث لا يبلغ صوتي أحدًا؛ وتجلس هي في غرفتها على الأرض بين السرير والجدار، وتضع طرف ثوبها على فمها إذا ضحكت.

وكنّا نتحدث في كلِّ شيءٍ وفي لا شيء: ماذا أكلتَ اليوم، ولماذا تأخّر المطر، ومن الأحمق الذي تكلّم في القاعة، وهل تشعر النملة.

ثم يطول الصمت بيننا فلا يثقل، وهذا وحده كان يكفيني لأعرف أين صرتُ منها.

وكانت تقول: اسكتْ قليلًا كي أسمع صوت الهواء عندك.

فأسكت، وأرفع الهاتف إلى السماء.

وتبادلنا الهدايا أكثر من مرة، وأجملُ ما أهدتني أنها أطعمتني من طبخ يدها؛ أرسلت مع من أرسلت شيئًا من صنعها، فأكلتُه على مهلٍ كأني آكل خطًّا من خطوطها.

ثم أهدتني قطعةً من قماشٍ لها رائحتها.

ولن أحدّثك كيف وصلت، ولا من حملها، فإنّ لكلِّ عاشقين بابًا لا يفتحانه لأحد؛ ولكني استنشقتها كما لو كنتُ بلا هواءٍ فأُعطيتُ في قرب موتي نفَسًا واحدًا فعادت لي الحياة.

وكانت تلك القطعة معي في كلِّ سفرةٍ سافرتها، حتى بهت لونها وذهبت رائحتها، وبقيتُ أشمّها وأنا أعلم أني لا أشمُّ شيئًا.

❖

من دفتر إلهام

قال لي اليوم إني كنتُ على حق، وكتبها هكذا صريحةً بلا مواربة.

ولا أدري لماذا بكيت.

ربما لأنّ أبي لم يقلها لأمي مرةً واحدة أمامنا، مع أنه غريبٌ عاش بينهم بفضلها، وربما لأنّ الرجل عندنا يظنّ أنّ الاعتراف نقص.

وأما مسألة الرقم فلن أُخفيه، ولو غضب.

ليس لأني لا أخاف، بل لأني إن بدأتُ أكذب في هاتفي انتهيتُ إلى أن أكذب في كلِّ شيء؛ وأنا أريد أن أُحبَّ بلا حيلة، فإن لم يكن الحبُّ يُحتمل بغير حيلةٍ فهو حبٌّ لا يصلح لأحد.

الفصل الرابع: غيابٌ وخبر

كنتُ قد عزمتُ نيّتي أن أكتم حبي إلى العيد، ثم أتقدم لخطبتها مباشرةً كما يفعل كلُّ من يحبُّ بصدق؛ فلم يبقَ على رمضان إلا أيام، وكنتُ أعدُّ لياليه عدًّا كمن ينتظر بابًا يُفتح.

ثم انقطعَتْ ثلاثة أيام؛ لا رسالة ولا خبر.

كان يمرُّ عليّ اليوم فلا يُحسب من أيام عمري من شدة القلق، ولم تغب عنّي هذه المدة من قبل، ثم عادت في اليوم الرابع لتكتب سطرًا باردًا وتذهب.

وكنتُ مضطرًّا للسفر خارج المدينة لعملٍ مهم، فقلتُ في نفسي: سأذهب دون أن أخبرها، وأنظر هل تقلق وتشتاق لي كما أقلق وأشتاق لها.

سافرتُ وأغلقتُ هاتفي؛ وكان لي رقمان، أتفقّد أحدهما دون الآخر لعلّي أجد منها شيئًا.

مرّت الأيام ولم يصلني حرف.

فأصابني الإحباط، وقلتُ: إنه حبٌّ من طرفٍ واحد، وأحسنتُ أني اختبرته قبل أن أُقدِم على أهلها.

وفي طريق العودة، ولمّا أصل بعد، لم أتمالك نفسي ففتحتُ الإنترنت.

فبدأت الرسائل تتوالى، رسالةً بعد رسالة، كلُّها سؤالٌ واحد: أين أنت؟

فعادت لي روحي، وكنتُ أقرأ في ترتيب رسائلها وفي لهفة سؤالها ما لم تقله لي في شهور؛ ثم عاتبتُها. ولم يكن ذلك من حقي حسب الأعراف. لماذا لم تتصلي؟ لماذا لم ترسلي رسالةً نصية؟

فأقسمت أنها أرسلت الكثير، واتضح لي أنها كانت تتفقّدني على رقمي الآخر الذي لا أفتحه.

ثم كتبت:

والآن أخبرني بصدق: هل كان سفرك عملًا، أم كان اختبارًا لي؟

فترددت، ثم قلت الحقيقة.

فقالت:

إذًا اعلم أنك فعلتَ بي في عشرة أيامٍ ما لم يفعله بي أحد.

لم أنم، ولم آكل، وكنتُ أخبّئ الهاتف تحت الوسادة وأستيقظ في الليل لأنظر إليه؛ وأنت جالسٌ تعدُّ عليّ الأنفاس لتعرف هل أحبك.

من أحبَّ لا يمتحن، لأنّ الامتحان يبدأ من الشك، ومن شكَّ في قلبي مرةً فسيشكّ فيه مرات.

فقلت لها: أنا أعتذر، وما أردتُ إلا أن أطمئن.

فقالت:

لو سألتني لأجبتك، ولكنك اخترتَ أن تسأل الغياب بدل أن تسألني.

وهذا ثاني درسٍ تعلّمته منها، وأثقل من الأول؛ أنّ الرجل يظنّ الاختبار ذكاءً وهو أول الخيانات الصغيرة، وأنّ من يحبّ يسأل ولا يتحيّن.

❖

ثم جاء الخبر.

قالت بعد ليلتين، وبلا مقدمات، كما تُقال الأخبار التي لا يُحسن أحدٌ قولها:

لقد خُطبت.

كأنّ للزمن كفًّا عملاقةً صفعني بها.

جلستُ أنظر إلى السطر، أقرؤه وأعيده كأنّ فيه حرفًا لم أفهمه؛ وبعد كلِّ ذلك الصفاء عاد لروحي الكدر.

. لا أدري، هل أبارك لكِ أم أُعزّي نفسي؟

. لماذا؟

. لأنّ نيّتي كانت أن أتقدم لخطبتكِ بعد العيد.

فلم تردّ.

عمّ السكوت مطوّلًا، لا هي تردّ ولا أنا أتحدث؛ ثم بدأت تكتب وتمسح، وأنا أرى الكلمة تُكتب ثم تختفي، خمس مرات، ستّ مرات، حتى ظننتُ أنها لن تقول شيئًا أبدًا.

ثم جاء سطرٌ واحد:

ولماذا انتظرتَ العيد؟

فما كان عندي جواب.

وباركتُ لها أخيرًا من قلبي، واقتنعتُ أنه النصيب وأنها ليست من أقداري؛ وقمتُ تلك الليلة أصلّي، ثم رجعتُ إلى الهاتف قبل أن يجفَّ أثر السجود.

وهنا قاطعني أحمد لأول مرةٍ منذ أن بدأت:

. ولماذا انتظرتَ العيد؟

فرفعتُ رأسي إليه.

. أتدري أنها سألتني السؤال نفسه، بالحرف؟

. وماذا أجبتها؟

. لم أُجبها.

. فأجبني أنا.

فنظرتُ إلى الإبريق بيننا، وقلت:

. لأني كنتُ أظنّ أنّ الوقت ملكي.

❖

من دفتر إلهام

خُطبتُ لأبي يئست.

هذه هي الحقيقة التي لن أكتبها له، ولن أقولها لسلمى، ولن أقولها لأمي التي فرحت.

غاب عشرة أيامٍ فظننتُ أنه فهم ما لم أقله وانصرف، ولّما جاء ابن عمّتي يخطب لم أجد في نفسي سببًا واحدًا أقوله لأبي، فسكتُّ؛ والسكوت عندنا موافقة.

ثم عاد بعد يومين ليخبرني أنه كان ينوي أن يتقدم بعد العيد.

بعد العيد!

أيّها الرجال، إنّ الله لم يخلق الأيام لكم وحدكم؛ نحن ننتظر في بيوتٍ لها أبوابٌ تُطرق، وأنتم تنتظرون في طرقٍ لا يطرقها أحد.

ولو قال لي كلمةً واحدةً قبل الصمت، لكان لي عذرٌ عند أبي، ولكنه اختار أن يُعِدَّ العيدَ، وأعدَّ لي القدرُ خاتمًا.

الفصل الخامس: اعترافٌ متأخّر

ظننتُ أنّ الحكاية انتهت عند الخبر، فإذا هي لم تبدأ بعد.

استمرّينا نتحدث بصفة الأخوّة التي بيننا، ولكن هذه المرة بشكلٍ أعمق؛ بدأنا نتحدث عن المشاعر والوجدان ونتعمّق في تفاصيل بعضنا أكثر، حتى صار الكلام يمشي وحده إلى حيث لا نريد أن نعترف أننا نريده.

وكنّا قبل ذلك نُحدّث بعضنا: ماذا سيحدث لو تعلّقنا ببعض إلى درجة الحب؟ ونتخيّل ذلك واقعًا، ثم نقول: هذا غير جائزٍ في ديننا، وهي قد خُطبت.

ثم لم نصبر على مشاعرنا، فقد كانت واضحةً بلا اعتراف.

وفي ليلةٍ من أواخر ذلك الشهر كتبتُ لها: أحبك.

فلم تردّ حتى الفجر، ثم جاءت كلمتها:

وأنا.

ومنذ الممرّ.

❖

فجلستُ أنظر إلى الكلمتين، وأنا أُعيد ترتيب سنةٍ كاملةٍ في رأسي.

إذًا كانت هي.

البنتُ التي جلست على الشرفة، وطلبت منّي أن أستأذن لنجلاء، ونُهرت أمام الجميع فضحكتُ أنا؛ هي نفسها الرقمُ الذي لا اسم له، وهي التي سألتني عن حالي في الليلة التي لم يسألني فيها أحد، وأنا أدور على زملائي أسأل عن اسمها كالأعمى.

وأولُ ما خطر لي لم يكن الفرح؛ بل ضحكتي يومها.

وفي أول حديثٍ لنا عن الحبِّ بعد ذلك الاعتراف قلتُ لها:

تعلمين يا إلهام أننا عابرون في هذه الحياة، والعابرون راحلون؛ والحبُّ الذي جمع روحينا قد لا يجمع جسدينا.

سأشترط عليكِ شرطًا: إذا فرّق بيننا القدر ولم يظلّنا سقفٌ واحد، وحان وقت الرحيل، فعلينا أن نودّع بعضنا بطريقةٍ تليق بحبّنا، تليق بالعشق الذي عشناه.

ولم يكن اشتراطي ذلك تحديدًا للمصير، بل من صدق شعوري وإيماني بالنصيب المكتوب، وكي لا نعيش على وهم اللقاء المؤكد فيخوننا شعورنا.

فوافقت.

ولو علمتُ يومها أنّ الشرط سيُطلب منها وفاؤه وهي في بيت رجلٍ آخر، لَما اشترطتُه.

❖

ثم بدأ الخصام الذي لم ينتهِ بيننا إلى اليوم.

فقد كنتُ أقوم من الليل فأجد اسمها في دعائي، وأخرج من الصلاة وأنا أعاهد الله أن أقطع، فإذا جاء المساء خذلتُ نفسي؛ ومرةً حذفتُ

رقمها ومحادثاتنا كلَّها ونمتُ وأنا أظنّني انتصرت، فما مضى يومان حتى كنتُ أبحث عن رقمها عند من يحفظه.

فكتبتُ لها ذات ليلة: نحن على ذنب.

فقالت:

لا تقل «نحن» ثم تكمل الحديث معي إلى الفجر؛ إما أن تتركني وأنت صادق، وإما أن تبقى وأنت صادق، أما أن تبقى وتلعنني كلَّ ليلةٍ فهذا أثقل عليّ من الفراق.

فقلت: وأنا لا أستطيع أن أتركك.

فقالت:

وأنا لا أرى في قلبي شيئًا يستحقّ كلَّ هذا التأنيب.

لم أخُن أحدًا، ولم أعِدْ أحدًا بشيء، ولم أخرج من بيتي، ولم أُنقص من صلاتي حرفًا؛ وأنت لم تطلب مني إلا الكلام. فإن كان الله يعذّب على كلامٍ نظيف، فما أضيق ما تصوّرتَه من رحمته.

فقلت: ليس التحريم في الكلمة يا إلهام، بل في القلب الذي يتعلّق بمن لا يحلّ له، وفي الباب الذي إذا فُتح لم يُغلق.

فقالت:

وأنا أخاف من بابٍ آخر: أن يصير الدين عندك سوطًا تجلد به نفسك ثم تجلدني.

أتعرف قصة امرأة أيوب عليه السلام؟

لمّا ابتُلي فمات أولاده وذهب ماله وأخرجه أهل قريته، لم يبقَ معه أحدٌ غيرها، فكانت تعمل أجيرةً عند نساء القرية لتعوله وتعول نفسها، ثماني عشرة سنةً لم تملّ ولم تكره.

ولم يكن الذي أبقاها الواجبَ وحده يا سليم، بل الحبّ؛ فإن كان الحبُّ ضدَّ الدين، فمن أين جاء بامرأةٍ صبرت هذا الصبر؟

فقلت لها: ولكنّ ذلك حبُّ زوجةٍ لزوجها، وهو حبٌّ في بابه.

فقالت:

نعم، وهذا هو الفرق الوحيد بيني وبينها؛ وهو فرقٌ في الباب لا في القلب.

فلا تُهِنْ قلبي لأنه لم يجد بابًا.

ولم أنسَ هذه الجملة أبدًا.

ومنذ تلك الليلة صرتُ أُصدّق ما كنتُ أقوله لها ولا أعيه: أنّ الأرواح مثل القصور تمامًا، لا بدّ من عرشٍ فيها، وعلى العرش سلطانٌ يملكها؛ فبعض البشر يصل إلى ذلك العرش بالخداع، وبعض الأرواح نقيّةٌ لا يتربّع على عرشها إلا نقيّ، وقد كانت روحها من هذا الصنف.

ولم نتّفق تلك الليلة، ولا في التي بعدها، ولا في التي بعدها.

وأقول لك الحقَّ يا أحمد: لم نتّفق أبدًا.

كنتُ أراها تُخفّف عن نفسها بحسن نيّتها، وكانت تراني أُثقل على نفسي بسوء ظنّي، وكان كلانا يمسك بطرفٍ من الحقيقة ولا يبلغ طرفها الآخر؛ وأنا اليوم بعد كلِّ هذه السنين لا أزال لا أدري: أكنّا مذنبَين تابا، أم بريئَين عُوقبا؟

وكنتُ أُسلّي نفسي بشيءٍ لا أدري أهو حجّةٌ أم عزاء: أنّ الذنب واردٌ من البشر في كلِّ زمان؛ فهذا صحابيٌّ جليلٌ يأتي النبيَّ صلى الله عليه وسلم يعترف على نفسه، وآخر يُقام عليه الحدُّ ثم يعود، وآخر أرسل كتابًا إلى قريش فأُخذ في الطريق، ومنهم من تخلّف عن الغزو بلا عذر؛ كلُّ ذلك وقع وهم أصحاب رسول الله، ولكنهم كانوا يعلمون أنّ الله توّابٌ رحيم، فاعتذروا واستغفروا فقُبِل منهم.

والعبرة ليست أن نفتّش في أخطاء الكِرام، بل أن نعلم أنّ من اعترف بغلطه يستطيع أن يبني نفسه من جديدٍ ويعود أقوى مما كان؛ أما الفاشل فهو من يختلق الأعذار ليُسلّي نفسه عن أخطائه.

وأنا في تلك الأيام كنتُ بين الاثنين، أعترف بلساني وأختلق العذر بقلبي، وصدق الشافعي:

نعيبُ زمانَنا والعيبُ فينا ... وما لزماننا عيبٌ سوانا

وهذا وحده يكفي ليؤرق رجلًا عمرَه كلَّه.

❖

وقد واجهني بهذا واحدٌ من زملائي في المعهد.

أوقفني في الممرّ وفي يده ورقةٌ مطبوعةٌ من كتاباتي، وقال بصوتٍ سمعه من حولنا:

ـ ما لك وللحب؟! أنت طالب علم، ولا يليق بأمثالك أن يكتبوا في الغزل؛ إنما يليق هذا بالشعراء.

فقلتُ له:

ـ أما قمتَ ليلةً في السَّحَر فأحسستَ من برد الهواء شيئًا لا تعرف له اسمًا؟ أما سمعتَ صوتًا حسنًا فاهتزَّ في صدرك وترٌ لم تكن تعلم أنه فيك؟ أما خلوتَ بنفسك تتذكر ماضيًا لن يعود فوجدتَ في نفسك فراغًا لا يملؤه فقهٌ ولا حساب؟ فمن يصف هذا كلَّه للناس إن لم يصفه أهل القلوب؟ وقد قرأتُ للشيخ علي الطنطاوي ردًّا على شيخٍ عاتبه لأنه كتب في الحب، وخلاصته أنّ من لا يجد في الشعر صورة نفسه فليس من ذوي القلوب؛ والنبيُّ صلى الله عليه وسلم أصغى إلى كعبٍ وهو ينشد قصيدته يتغزّل بسعاد، فهل كان أضيقَ صدرًا منك؟

مضى ولم يُجب.

ومضيتُ أنا وفي قلبي شيءٌ لم يهدأ، لأني كنتُ أعلم أنّ الذي عاتبني أخطأ في حجّته، وأني أخطأتُ في طريقي، وأنّ كوني على حقٍّ في الجواب لا يجعلني على حقٍّ في الفعل؛ وما أسهل أن ينتصر الإنسان في مناظرةٍ وهو يعلم أنه المهزوم في نفسه.

❖

من دفتر إلهام

يقول إننا على ذنب.

وأنا لا أنكر أنّ في الأمر ما يُخاف منه، ولكني أنكر عليه أن يحمل الوزر كلَّه ويعطيني نصفه هديّة.

سألتُ سلمى: أتظنّين أنّ الله يغضب على قلبٍ لم يطلب حرامًا؟

قالت: لا أدري، ولكني أعرف أنّ الله أرحم بكِ منكِ.

فبكيتُ، ولا أدري: أبكيتُ من الخوف، أم من الراحة، أم لأنّ الجواب جاءني من امرأةٍ ولم يأتني من رجلٍ يقرأ الكتب؟

ولستُ أُنكر أني أخاف.

ولكنّ خوفي غير خوفه: هو يخاف أن يكون قد أذنب، وأنا أخاف أن أكون أحببتُ رجلًا يحتاج إلى أن يكون بريئًا أكثر مما يحتاج إلى أن يكون معي.

وأصعب ما في الأمر أني لا أستطيع أن أقول له هذا، لأنه سيسمّيه وسوسةً ثم يدعو لي.

الفصل السادس: نجلاء

اتصلَتْ بي ذات ظهيرةٍ وبدون مقدمات:

. ما الذي بينك وبين نجلاء؟

. ما الذي بيني وبينها؟!

. أقسمتُ عليك أن تقول الآن.

. تمهّلي قليلًا، ما هذا الهراء الذي تقولينه؟

فقالت والعبرة تخنقها، وصوتها مثل طفلةٍ ضاق بها يومها:

. سليم... هل تتحدث معها؟

. لا، لا أحدّثها بغير ما هو ضروري.

. كنتُ اليوم عندها في بيتها، وظلّت تحكي لي قصة حبها لك.

فضحكتُ؛ لم يكن بيني وبينها أيُّ حبٍّ ولا أعرف عن هذا شيئًا.

ثم بدأت تسوق لي المواقف التي أخبرتها بها: أنها مرةً أُغمي عليها فأسعفتُها، ومرةً أصابني الدوار فسقتني الماء، ومرةً أعطيتُها كتابًا، ومرةً وقفنا نتحدث عند الدرج نصف ساعة.

ولم يحدث شيءٌ من ذلك أبدًا.

قلت لها: نجلاء تكذب، وهذا الكذب ليس هيّنًا؛ فإن ثرثرت به بين زميلاتنا فكيف تكون نظرتهنّ إليّ؟ في الظاهر ملتزم، وفي السرّ يقيم علاقةً مع زميلة.

فقالت بعد صمت:

. نعم تكذب، ولكني لا أكرهها.

. وكيف لا تكرهينها وهي تخترع عليك وعليّ؟

. لأنها لم تخترع عليك أنت، بل اخترعت لنفسها.

. لا أفهم.

. أنت لا تعرف كيف تعيش فتاةٌ لا يسألها أحد، ولا يكتب لها أحد، ولا ينتظرها أحد؛ ويجلسن حولها كلَّ يومٍ فتحكي هذه عن خاطبٍ وهذه

عن رسالة، وهي تسمع، فإذا لم تجد ما تقوله اخترعت، ليس لتؤذيني أنا، بل لتنجو هي من أن تكون الوحيدة التي لا حكاية لها.

فسكتُّ، ثم قلت: ومع ذلك فالكذب يبقى كذبًا.

فقالت: نعم يبقى، ولكن ليس كلُّ كاذبٍ خبيثًا؛ فمن الناس من يكذب من خبث، ومنهم من يكذب من فقر.

وهذه المرة لم يهزمني دليلها، بل هزمني أني لم أكن قد فكّرتُ في نجلاء إنسانةً قط؛ كانت في ذهني عقبةً في طريقي لا أكثر، فجعلَتْها هي إنسانًا وأنا لم أفعل، وأنا الذي كنتُ أُحاضرها في تقبّل الناس كما هم.

❖

ولم أكن أحسن منها.

فقد كان في قاعتها زميلٌ اسمه مروان، يسألها عن الدروس ويعيرها كتبه؛ فإذا مرّ اسمه في كلامها عَرَضًا اشتعلتُ.

كنتُ آخذ الموقف الصغير فأجعله كبيرًا، والكلمة العابرة فأجعلها قصدًا، وأُعيدها عليها حتى تصدّق أنها أخطأت، ثم أسمّي ذلك كلَّه غيرةً

وأنا أعلم في قرارة نفسي أنه ليس كذلك؛ حتى صارت تستأذنني قبل أن تجيبه عن مسألة.

وكنتُ أفرح.

نجلاء اخترعت حكايةً لئلّا تكون الوحيدة التي لا حكاية لها، وأنا كنتُ أُضخّم حكايةً لئلّا أكون الرجل الذي لا سلطان له؛ والفرق بيننا أنّ كذبها لم يؤذِ إلا صاحبته.

❖

ثم جاء اليوم الذي طلبتُ فيه أن نلتقي.

ليتها تسمعني الآن لأقول لها: أتذكرين حين طلبتُ منكِ أن نلتقي في ساحة المعهد كأيِّ زميلين يلتقيان بالصدفة ويتحدثان؟ كنتُ أريد أن أنظر إلى عينيكِ عن قرب.

كان ردُّكِ بكلمة: لا.

. لا يمكن، أخاف أن يرانا أحد، وربما لا تتمالك نفسك فتفكر أن تلمسني.

كنتُ أشعر بقيمتكِ، وتكبرين في نظري مع ما كان يصيبني من حزن الرفض؛ وكلما تذكرتُ ذلك الرفض علمتُ كم كنتِ جميلة.

وبعد أخذٍ وردٍّ وتمنّعٍ منها وإلحاحٍ مني، وافقت على شرطٍ واحد: أن أسلّم فتردَّ السلام، وينتهي اللقاء عند ذلك.

خطّطنا جيدًا: الطابق الأخير من المبنى القديم، حيث لا يمرُّ أحد، وقلتُ لها أن تذهب إليه مباشرةً قبل أن تلتقي بأيّ زميلة، وأن تبلغني قبل وصولها بربع ساعةٍ كي أستعدّ. وكان إبليس هو الذي يخطّط لنا ..

فصعدتُ ووقفتُ عند النافذة أعدُّ الدقائق.

مرّ ربع ساعة، ثم نصف، ثم مرّت الساعة.

اتصلتُ فلم تردّ، وأرسلتُ فلم تجب، ونزلتُ الدرج أنزل درجتين درجتين، وأنا أنظر في كلّ وجهٍ يمرّ بي كأنه يعرف ما جئتُ له.

وخرجتُ من المعهد وكلّي غيظ، فأرسلتُ لها رسائل عتابٍ ولمتُها، بل وبّختُها بالكلمات وقسوتُ عليها قسوةً لا يفعلها من يحب.

فاتصلت بي مساءً وهي تجهش بالبكاء:

. لقد جئت.

. لم تأتي!

. بل جئتُ يا سليم، ووقفتُ في آخر الممرّ خلف العمود، أراك من ظهرك وأنت تنظر من النافذة.

فما استطعتُ أن أقول شيئًا.

. وقفتُ ربع ساعةٍ يا سليم، أقول: خطوتان وأصل، وأقول: إن رآني أحدٌ فقد انتهيت أنا وانتهى أهلي، وأقول: هو ينتظر منذ ساعةٍ فكيف أتركه؟ ثم رأيتك تلتفت فاختبأتُ، ونزلتُ من الدرج الآخر وأنا أبكي.

. ولماذا لم تخبريني؟

. لأني كنتُ أظنّني سأعود، ثم لأني خجلتُ، ثم لأنك بدأت ترسل الرسائل ولم تسألني: هل أنتِ بخير؟ سألتني: لماذا فعلتِ بي هذا؟

فوالله ما شعرتُ بصغَري كما شعرتُ به تلك الليلة.

كانت واقفةً على مسافة عشرين خطوةً منّي، بينها وبين حياتها كلِّها خطوتان، وأنا في تلك اللحظة نفسها كنتُ أشتمها في نفسي وأقول: هي لا تبالي.

وقلتُ لها: سامحيني.

فقالت: سامحتك من قبل أن تطلب، ولكن لا تُعِدْ يا سليم؛ فأنا لا أخاف من أهلي بقدر ما أخاف أن يجيء اليوم الذي أخاف فيه منك.

ثم قالت بعد صمت:

ـ حدّثتني سلمى بقصةٍ قرأتها؛ رجلٌ تزوّج امرأةً مشهورةً بالجمال، ثم سافر لعملٍ يطول قريبًا من سنة، فأصابها في غيابه مرضٌ أتى على جمالها فشوّهها، وفي طريق عودته أصيب بحادثٍ فعاد وقد فقد بصره، فقامت على شؤونه ولم تتركه، وظلّ الحبُّ بينهما كما كان بل ازداد؛ ومرّت السنون فماتت، فلمّا أخرجوها للجنازة خرج يمشي مع الناس بلا قائدٍ يقوده، فاستغربوا وسألوه، فقال: لم أكن أعمى قطّ، وإنما ادّعيتُ العمى كلَّ هذه السنين كي لا تتحرّج امرأتي بعد أن كانت تُدلُّ عليّ بجمالها.

ـ وما مرادكِ من هذه القصة الآن؟

. مرادي أنّ الحبَّ ليس أن تُثبت أنك على حق، بل أن تُخفي حقَّك أحيانًا لئلا يُجرح من تحب.

ولم أجد ما أردُّ به، لأنها وصفت لي في قصةٍ ما عجزتُ عن فهمه في سنة.

❖

وأما اليوم فأقول: لم يكن حظّي عاثرًا، بل كان حفظ الله لي ولها؛ وما أجمل عناية الله الذي علم نقاء قلبينا فلم يدعنا نقع في تلك الزلّة، ولكنّ عناية الله لا يعرفها المرء ساعةَ وقوعها، وإنما بعد سنين، وحينها يكون قد شتم القدر مئة مرة.

❖

من دفتر إلهام

خلف العمود، في الطابق الأخير، وقفتُ أنظر إلى ظهر رجلٍ ينتظرني.

ولم أرَ في حياتي شيئًا أجمل من ظهر رجلٍ ينتظر، ولا شيئًا أوجع.

كنتُ أعدُّ: واحد، اثنان، ثلاثة... وعند الثالثة أتذكر وجه أمي.

قال لي مرةً إنّ الرجل يخوض معركة الحب وحده، وأنه يحتاج إلى صلابة.

يا سليم، أنا التي خضتُ المعركة يومها.

أنت كنتَ تخاطر بموعد، وأنا كنتُ أخاطر بعمري كلِّه؛ وحين انصرفتُ لم أنصرف جبنًا، بل انصرفتُ لأني كنتُ أحمل شيئًا أثقل مما تحمل.

ثم عاتبني.

الفصل السابع: مكالمة

كنتُ أتابع إعلان النتائج كلَّ يوم، فقد اعتاد الزملاء أن أبلّغهم بمعدلاتهم؛ وبطبيعة الحال كانت إلهام أولَ من أريد أن أُدخل السرور إلى قلبها.

وبمجرد أن ظهرت النتائج بحثتُ عن اسمها فوجدتها بين الناجحين، وسجّلتُ درجاتها في ورقةٍ صغيرة، وأنا أفكّر في الفرحة التي ستزور روحها إذا كنتُ أنا من يبلّغها.

اتصلتُ.

فأجاب صوتُ امرأةٍ كبيرة.

. أهلًا.

تجمّد لساني.

. سلام... أنا أمين الدفعة... أنا ياسر... أنا اااا...

. ماذا تريد؟

. هل هذا صديقي...؟

. لا. من أنت؟

. أنا غلطانٌ في الرقم!

وأغلقتُ.

جلستُ أنظر إلى الهاتف في يدي كأنه سلاحٌ انطلق منه رصاصٌ لا يعود؛ وكنتُ قبل دقيقةٍ أحمل إليها بشرى، فإذا أنا الذي حملتُ إليها البلاء، وفي يدي ورقةٌ صغيرةٌ كتبتُ فيها درجاتها ولم تعد تنفع.

وكلُّ ذلك لأني أردتُ أن أُفرحها.

❖

وفي بيتهم، دخلت الأمُّ على ابنتها وسلمى معها، وقالت كلمةً واحدة:

. اتصل بكِ رجل.

ولم تكن الأمُّ تعرف القراءة، ولكنها كانت تميّز ما إن كان الرقم محفوظًا باسمٍ في الهاتف أم لا؛ ولأنّ البيت كان مكتظًّا بالضيوف، صمتَتْ صمتًا مؤقتًا، وهذا الصمت أشدُّ من الصياح.

أخذت إلهام الهاتف وأعطته لسلمى، فحذفت رقمي ومحادثاتنا كلَّها.

ثم وصلتني رسالةٌ من سلمى:

ماذا فعلت؟

لو تعلم يا سليم كيف حال إلهام، أمُّها لم تعد تكلّمها، وتقول إنها خانت تربيتها؛ وقالت لها كلمةً قاسيةً جدًّا: لقد سقطتِ من عيني.

ولا يوجد أقسى من عتاب المحبّين، وخاصةً من لهم مكانةٌ مرموقةٌ في نفسك؛ وصعبٌ جدًّا أن تقع بين نارين: نار الحبِّ الذي يحتلُّ عروقك، ونار الخوف من الأهل والفضيحة التي تمزّق قلبك.

ظلّت أمُّها فترةً طويلةً تُشعرها أنها مستاءةٌ منها، لا توليها اهتمامًا ولا تستمع لكلامها، وكانت تسألها بين الحين والحين: هل لا زلتِ

تتواصلين به؟ فتكون إجابة إلهام البكاء، أو تقول: لا أتصل بأحد، أو تصمت فلا تردّ.

ولم تتركا الأمر يمرّ؛ فجعلتا زميلةً تتصل بالأمّ وتصوّر الأمر على أنه غلطٌ من أخيها اتصل برقمٍ يشبه رقمًا آخر، ولكنّ الأمَّ لم تقتنع، وظلّت تشكُّ وتراقب.

❖

وحين استطاعت أن تحدثني بعد أيام، لم أملك نفسي فقلت:

ـ لو أنكِ حفظتِ رقمي باسم فتاةٍ كما طلبتُ منكِ، ما حدث شيءٌ من هذا.

فسكتَتْ طويلًا، ثم قالت:

ـ نعم، لو كذبتُ لنجوت.

ـ ليست كذبًا، إنما هو سترٌ يا إلهام.

ـ وهل الستر أن أُخفي؟ أم أن لا أفعل ما يحتاج إلى إخفاء؟

فما وجدتُ جوابًا.

ثم قالت وهي تبكي:

. ومع ذلك يا سليم فأنا التي أخطأت، لا لأني لم أُخفِ رقمك، بل لأني تركتُ الأمر يصل إلى موضعٍ يحتاج فيه اسمُ رجلٍ أن يُخفى في هاتف بنت.

فبكيتُ أنا أيضًا وهي لا تدري.

وهذا ثالث ما تعلّمته منها: أنّ المرأة إذا وقعت في المضيق حاسبت نفسها، وأنّ الرجل يبحث في المضيق نفسه عمّن يلومه.

❖

ومنذ تلك المكالمة صارت تحدثني وهي خائفة.

كانت ترسل الرسالة ثم تحذفها، وتتصل من بيت سلمى، وتخفي الهاتف تحت طرف ثوبها، وتقطع الكلام في نصفه إذا سمعت خطوة؛ وأنا أسمع صوت الخطوة معها من خلف الهاتف، فأصمت أنا أيضًا كأنّ الذي يمشي يمشي في غرفتي.

ولو لم تفعل ذلك لمات صديقك من القلق.

وكنتُ أتألم لألمها، بل أعيش حالة الضيق التي تعيشها، لأني كنتُ السبب في كلِّ ما يحدث معها.

❖

من دفتر إلهام

ليست أمي قاسية.

هذا ما لا يفهمه سليم، وهو يظنّ أنّ في بيتنا سجّانًا.

أمي امرأةٌ حملت اسم بيتٍ ليس بيتها، وتزوّجت غريبًا فتكلّم الناس عليها عشرين سنة، وهي تعلم ما ينتظر البنت التي يُقال عنها كلمة؛ ولذلك حين قالت «سقطتِ من عيني» لم تكن تشتمني، كانت تخاف عليّ خوفًا لا تعرف له لغةً غير هذه.

نساؤنا يا سليم لا يقلن «أخاف عليك»، يقلن كلامًا قاسيًا ثم يبكين في المطبخ.

وأنا سمعتها تبكي.

الفصل الثامن: حاجزٌ لا يُرى

كانت في تلك الأيام تصرُّ أنها تريد أن تفسخ خطبتها، وكنتُ أذكّرها أنّ هذا لا يصحّ، وأنه لا يجوز لمسلمٍ أن يخطب على خطبة أخيه.

ثم سألتُها ليلةً بطريقة الاستفسار:

. إلهام، إذا قدّر الله وفُسخت خطبتكِ، وقررتُ أن أتقدم لخطبتك، هل ترضين بي زوجًا؟ وهل اختلاف مجتمعي عن مجتمعكِ سيكون له أثر؟

. وكيف لا أرضى بك وأنت كلُّ أحلامي؟ بل أسبّح الله في صلاتي فيتلو اسمَك تلك التسبيحات.

ولم يكن سؤالي لأني أشكّ، بل لأنّ الرجال تحبّ أن تسمع كلام الحب من أفواه النساء؛ وإنما كان تمهيدًا للسؤال الحقيقي:

. أجيبيني بالواقع الذي سيكون: إذا تقدمتُ لخطبتكِ، هل سأجد ترحيبًا من أسرتك؟

صمتت طويلًا.

ثم قالت:

ـ لن أكذب عليك يا سليم. إذا تقدمتَ لخطبتي لن تجد أيَّ ترحيبٍ بك؛ بل إذا عرف أهلي أنك عرفتني من المعهد ستكون كارثةً عظيمة، لن يتفهّموا الأمر، وقد يقتلونني ويقتلوك، فليس هناك مجالٌ لدخول غريبٍ فيهم وبنفس طريقة حبّنا، مجرد كلمة حبٍّ بيني وبينك، نكون قد جنينا على أنفسنا.

فحزنتُ حزنًا لم أحزنه من قبل، ثم غضبت.

ـ وأنتِ ترضين بهذا؟ عادةٌ جاهليةٌ تُورَّث، تحرم الناس بعضهم بعضًا لأنّ هذا من هؤلاء وذاك من أولئك؛ أهذه قبيلةٌ أم سجن؟

فردّت بحدّةٍ لم أعهدها:

ـ لا تسبَّ قومي وأنت لا تعرف عنهم إلا البابَ المغلق.

ـ أنا لا أسبّهم، أنا أسبُّ ما يفعلونه بنا.

. وهم أنفسهم الذين لو مرضتُ لباتوا عند بابي، ولو مات أبي لما احتاجت أمي أن تسأل أحدًا شيئًا؛ القبيلة يا سليم ليست سجنًا فقط، هي أيضًا سقفٌ لا يسقط، وأنا أكرهها الليلة، وسأحتاج إليها بعد سنة.

ثم خفض صوتها وقالت:

. وأنت لو كنتَ مكانهم لفعلتَ مثلهم.

. لا والله.

. بلى؛ ألستَ أنت الذي غار من كتابٍ أخذتُه من مروان؟ لو كانت لك أختٌ يحدثها رجلٌ في الليل كما أحدثك، ماذا كنتَ ستفعل؟

فسكتُّ، وسكوتي كان جوابًا.

❖

ولم نتفق تلك الليلة، ولكنها قالت لي في آخرها كلامًا فتح لي بابًا:

. وأبي نفسه كان غريبًا مثلك.

جاء إلى هذه الصحراء في مقتبل شبابه، في حدود الثامنة عشرة، ضمن فريقٍ أُرسل لشقِّ طريقٍ في تلك الجهات، فتاه عن رفقته وكاد

يهلك، فعثر عليه رجالٌ من قومنا فحملوه وسقوه وأجاروه، ثم مرّت به فتاةٌ بدويةٌ صغيرة فالتقت عينُه بعينها، ففُتن بها ومات في غرامها.

ذهب متحمّسًا إلى أهلها ليخطبها فرفضوه لأنه ليس منهم، فلم يستسلم؛ تقدّم ثانيةً فرُفض، وثالثةً ورابعة، حتى أزعجهم إصراره فقبلوه وزوّجوه.

وعاش بينهم حتى صار الجيل الجديد لا يعرف أنه ليس منهم.

فقلت لها والدنيا تدور بي:

. فماذا يفرّق أباكِ عني؟ عشِق أمَّكِ وتزوّجها، وها أنا أعشقكِ وأريدك؛ ألسنا عاشقين؟ ألسنا غريبين؟ ألستِ ابنة المرأة التي عشقها؟

فقالت جملةً واحدةً قصمت ظهر كلِّ حجّةٍ عندي:

. لأنّ أبي طرق الباب من أوله، وأنت طرقتَ القلب من الشباك.

❖

ورأيتُه مرةً واحدةً في حياتي.

رأيتُ خطيبها.

كنتُ واقفًا عند بوابة المعهد أنتظر سيارةً تقلّني، فتوقفت سيارةٌ قديمةٌ على الرصيف المقابل، ونزل منها شابٌّ في مثل سنّي، طويلٌ نحيف، عليه أثر السفر، ووقف ينظر إلى البوابة كمن ينتظر أحدًا ولا يحبّ أن يُرى وهو ينتظر.

ثم خرجت هي مع زميلاتها، فتقدّم خطوتين، ثم تراجع، ثم صعد إلى السيارة ومضى.

ولم أعرف حينها من هو.

عرفتُ بعدها بشهور، حين وصفَتْ لي سيارته من غير أن تدري لماذا أسأل.

وأعجب ما في الأمر أنني حين تذكّرتُ وقفته لم أستطع أن أكرهه؛ رأيتُ فيه رجلًا يقف على الرصيف المقابل، ينتظر امرأةً لا يعرف أنّ قلبها في مكانٍ آخر، ويخجل أن يُرى وهو ينتظرها.

وهذه أول مرةٍ خطر لي أنّ في هذه الحكاية ثلاثة قلوب، لا قلبين.

❖

ثم صبّ أحمد الشاي الثالث وسكت، فقلتُ له:

يا صديقي، الحبُّ مثل الحرب تمامًا؛ لا بدّ أن تعاني كثيرًا لتنتصر على العادات والأعراف وكلام الناس وألم القلب وعتاب الضمير وعناد المحبوب، ولا بدّ أن تكون صلبًا، فساحة المعركة فيها كلُّ هؤلاء يهجمون عليك دفعةً واحدة؛ وربما تخرج بعد كلِّ الدماء التي أُريقت خاسرًا مندحرًا، وربما لا تخرج إلا جثةً هامدة.

❖

من دفتر إلهام

قلتُ له: أبي طرق الباب، وأنت طرقتَ الشباك.

وندمتُ ساعةَ قلتها، لأنها صحيحة، والكلمة الصحيحة في وقتها الخطأ سكّين.

ولكن ما لم أقله له: أنّ أبي طرق الباب أربع مرات لأنه لم يكن يخاف على أحدٍ غير نفسه؛ أما سليم فكلُّ طرقةٍ يطرقها تقع على رأسي أنا.

الغريب الذي يخطب بنتًا من قومٍ ليسوا قومه يخسر كرامته إن رُفض.

والبنت تخسر رقبتها.

ولذلك لم أطلب منه أن يتقدّم، ولم أمنعه.

ولذلك أيضًا لا أدري إن كنتُ أحببتُه كما ينبغي، أم أحببتُه كما استطعت.

وأما الرجل الذي كُتب اسمي إلى جانب اسمه، فلم أكرهه يومًا، وهذا أثقل ما فيه.

رأيته مرتين: مرةً في بيتنا وهو ينظر إلى الأرض لا إليّ، ومرةً عند بوابة المعهد واقفًا بجانب سيارته لا يدري أيتقدّم أم ينصرف، فمررتُ به ولم ألتفت.

ولو كان فظًّا لهان عليّ أن أظلمه في قلبي.

ولكنه رجلٌ طيّبٌ سيُحسن إليّ، وسأعطيه بيتًا نظيفًا وصبرًا وولدًا وكلَّ شيء، إلا الشيء الوحيد الذي لا يعلم أنه ينقصه.

وهذا ذنبٌ لم أجد له في كتب الفقه اسمًا.

الفصل التاسع: نصف شهر

وكنّا نتشاجر، كما يتشاجر كلُّ اثنين لا يملكان من بعضهما إلا الكلام؛ فالطبع البشري يحتّم اختلاف المفاهيم، ولن تجد شخصين متوافقين تمامًا أبدًا، ولا يحلو الحبُّ بدون عتابٍ وانتظار. وكان أكثر شجارنا لذيذًا: عتابٌ ثم صلح، وكنتُ أحسبه دليلًا على أنّ لي عندها مكانًا.

لكنّ شجار تلك المرة كان سريعًا، وعاقبته وخيمة.

كنتُ أنتظرها ليلةً وقد تجاوزت الساعة العاشرة، وكانت عادتها التأخّر ولا أحبّ هذه العادة، ثم رنّ هاتفي واسمها يظهر.

ولم أكن وحدي؛ كان في الغرفة ضيوفٌ عند زميلي الذي يشاركني السكن، فأجبتُ وأنا أحدّثها على أنها صديقٌ لي كي لا يشعر أحدٌ أني أحدّث أنثى، وكانت أصواتهم مرتفعةً جدًّا.

. اصبري قليلًا، إنهم على وشك المغادرة.

. إن استمرّ الإزعاج سأنهي المكالمة.

ولم أكن أهدأ منها:

. إن كنتِ ستنهينها فبراحتك.

كانت رغبتي الشديدة أن تستمرّ المكالمة، ولكنّ كلًّا منّا لم يُرد أن يخضع لقانون الكبرياء الناقصة.

فلم تتردّد، وأنهت المكالمة من فورها.

فأرسلتُ لها: لم أتوقعها منك.

فردّت بأعذارٍ غير مقنعة، وفي كلامها غلظة، وقالت:

أنا أنفّذ ولا أهدّد.

فقررتُ أن أعاقبها، وقسوتُ عليها في نظر كلِّ عاشق: أقسمتُ ألّا أحدّثها نصف شهر.

وليست مدةً يسيرةً على المحبّين؛ غيابُ يومٍ واحدٍ يُثقل الروح، فما بالك بنصف شهر؟ تراقبني وأراقبها، أجدها أمامي ولا أحدّثها، فيتمزّق القلب من ألم الانتظار، ومن قلقٍ واضطرابٍ نفسيٍّ طوال اليوم، وأرقٍ

طوال الليل، يصحب ذلك تأنيب الضمير؛ وأظنّ هذا العذاب هو ضريبة الحب.

وفي اليوم الثالث كتبت:

أنت لا تعاقبني، أنت تجرّب سلطانك.

وفي اليوم الخامس رأيتها.

كنتُ خارجًا من القاعة وكانت داخلةً إلى الممرّ نفسه الذي رأيتها فيه أول مرة؛ الممرُّ نفسه، والضوءُ نفسه ينزل من النوافذ العالية فيقطعه أعمدةً بيضاء.

مشت في الضوء، ثم في الظلّ، ثم في الضوء، ومرّت بي على بعد خطوتين ولم ترفع رأسها؛ وكان في يدها دفترٌ تضمّه إلى صدرها كمن يحمي شيئًا.

فأدرتُ وجهي إلى الجدار وأنا أعدُّ في قلبي: بقي عشرة أيام.

عشرة أيام. قلتها كأنّ الأيام تنتظرني.

وفي السابع:

يا سليم، أنا في بيتٍ يراقبني، وفي معهدٍ يراقبني، وخطيبٌ ينتظر موعدًا، ولم يكن لي في الدنيا إلا نافذةٌ واحدة، فأغلقتَها عليّ لتُعلّمني الأدب.

وفي العاشر:

سامحك الله.

ولم أردّ على شيءٍ من ذلك، برًّا بقسمي.

وليس في الدنيا أثقل على الرجل من أن يكون على حقٍّ في يمينه، وعلى باطلٍ في قلبه.

إلا يومًا واحدًا استثنيتُه من القسم منذ لحظة أقسمته: كان يوم ميلادها.

فأرسلتُ لها في ذلك اليوم سطرًا واحدًا، ثم عدتُ إلى صمتي.

❖

وقبل أن تنتهي المدة بثلاثة أيام، وصلتني منها رسالةٌ واحدة:

ضاقت بي الوسيعةُ ولم أجدك.

قرأتُها عشر مرات.

وانتابني خوفٌ وقلق، ثم كنتُ أقول: لا، لن يحدث ذلك؛ ثم أعود فأقول: ربما لم تعد ملكي.

ولم أردّ عليها.

ثلاثة أيامٍ فقط، قلتُ في نفسي، وسأشرح لها كلَّ شيء، وسأعتذر، وسأقول لها إني أحمق وإني كنتُ أخاف أن أخسرها – فخسرتها بيدي.

❖

وأخيرًا انتهت الفترة المحددة للعقاب.

بلهفةٍ وشوقٍ على أحرَّ من الجمر، يكاد قلبي يُغمى عليه من فرحي، وهي تبادلني نفس اللهفة؛ وبمجرد أن بدأتُ الحديث وسألتها عن حالها، قالت:

. يا سليم... أنا أصبحتُ متزوجةً شرعًا.

ماذا أقول لك وكيف أحدثك يا أحمد؟

هل أحدثك عن تصلّب الدم في عروقي؟ أم عن قطرات دمعي المحرقة؟ أم أخبرك عن ألم رأسي؟ أما روحي فقد وافتها المنيّة لحظة سمعتُ كلماتها.

بصيصُ الأمل الذي كان يرافقنا لم يعد له وجود، وأحلامي معها عن الحياة تحت سقفٍ واحدٍ تلاشت، وخيالُ الولد الذي سيشبهها ـ وهي تقول: بل سيكون مثل أبيه ـ لم يعد له وجود، وذهابي معها إلى قريتنا الريفية البعيدة والمرور على كلِّ ذكريات الطفولة لن يحدث، وحيرتي أين سأتركها إذا سافرت: في دار أهلي؟ أو دار أهلها؟ أو سيكون لنا منزلنا الخاص؟

كلُّ هذا انتهى في جملةٍ واحدةٍ من أربع كلمات.

أظلمَتْ نفسي، ثم لم تُصبح إلا بعد سنين.

ولقد مرضتُ لهذا الخبر مرضًا حقيقيًّا، لزمتُ فيه الفراش ثلاثة أيام، يقول من حولي إنها حمّى الغربة، وهم لا يدرون أنّ في الدنيا حمّى اسمها الفراق.

وسكتُّ.

فمدّ أحمد يده وأخذ كوبي من أمامي، وصبّ فيه شايًا جديدًا ولم يقل شيئًا؛ وكان الذي قبله قد برد وأنا لم ألمسه.

. أتريد أن نكمل غدًا؟

. لا. إن لم أُكمله اليوم لن أُكمله أبدًا.

❖

من دفتر إلهام

عقدوا عليّ في اليوم الخامس من عقابه.

جاءوا فجأةً، وقالوا إنّ الرجل مسافر، وإنّ العقد يُقدَّم والزفاف يؤجَّل، وإنّ هذا خيرٌ لي.

وأنا كنتُ في تلك اللحظة أنظر إلى الهاتف الذي لم يرنّ منذ خمسة أيام.

ومررتُ به في صباح ذلك اليوم في الممرّ ولم أرفع رأسي، وكنتُ أعدُّ خطواتي وأقول: إن نطق باسمي التفتُّ.

فأدار وجهه إلى الجدار.

فلمّا جاءوا في المساء لم أجد في نفسي ما أقاتل به.

ولو رنَّ مرةً واحدة، مرةً واحدةً فقط يا سليم، لقلتُ لأبي كلمةً ما كنتُ أملك غيرها.

ولكنّ الصامت لا يُستشار.

كتبتُ له: ضاقت بي الوسيعة ولم أجدك؛ وانتظرتُ حتى الفجر.

ثم قلتُ نعم.

ولا ألومه، فما كان يعلم؛ ولكني تعلّمتُ في تلك الليلة أنّ الغائب لا يُحاسَب على غيابه بقدر ما يُحاسَب على اللحظة التي اختارها ليغيب فيها.

الفصل الأخير: وداعًا حاليًّا

وبعد أيامٍ من الخبر، قالت لي جملةً لم أتوقعها منها أبدًا:

ـ اهرب بي.

ـ ماذا تقولين؟!

ـ اتركْ كلَّ شيءٍ واهرب بي، لا أسألك إلى أين، ولا كيف؛ فقط خذني.

وهي التي كانت ـ قبل أن تصبح زوجةً لغيري ـ تحدّثني عن خطر هذا التصرّف، وأنه فضيحةٌ وعارٌ لأهل الفتاة، وحدّثتني عن فتاةٍ من جيرانها فرّت مع من أحبّت وكيف صار حال أهلها.

ولكنّ حبّها لي طغى على كبريائها، ولم تسألني إلى أين، ولم تقترح مكانًا، ولا كيف، ولا ما السبيل؛ كان كلُّ مرادها أن تكون معي، ووثقت بي كثيرًا، ورأتني الأمان لحياتها وكنتُ أراها الأمان لحياتي.

فقلت لها: لا.

. لماذا؟

. لأنّ ديننا لا يسمح، ولأنكِ زوجة رجلٍ الآن، ولأنّ حبّي العفيف لكِ ليس حبًّا صادقًا إن كانت نهايته أن أجعلكِ تغادرين بيت أهلكِ بعد أن تزوّجت.

فبكت بكاءً طويلًا، ثم قالت الكلمة التي حملتُها معي كلَّ هذه السنين:

. جبان.

ولم أدافع عن نفسي.

ولم أقل لها: أنا الذي أُنقذكِ الآن؛ لأني كنتُ أعرف أنّ من يبكي لا يريد حجّة، ولأنّ في داخلي صوتًا خافتًا كان يقول: ربما هي محقّة، وربما الرجولة كانت أن تحملها وتمضي، وربما أنت لا ترفض من التقوى وحدها، بل من الخوف أيضًا.

وإلى اليوم لا أعرف أيُّ الصوتين كان صادقًا.

لكني أعلم أنها ستذكرني يومًا ما وتقول: لقد أحسن يوم رفضه؛ ولا ألومها مهما قالت، ولكن سأبكيها ما حييت.

❖

الدخول في الحب يا أحمد كدخولك بستانًا جميلًا؛ كلُّ شيءٍ فيه رائع، يشعرك بالسعادة، وتتلذّذ بالمناظر وتترنّم بالأصوات العذبة، ثم قد يصيبك ألمٌ لسعةِ نملة، ولكنّ الجمال يطغى على ألمٍ بسيط فتعيش مطمئنَّ النفس... ثم يُغلق عليك سورُ البستان من الخارج.

وتسلّق الجدار صعبٌ جدًّا، وحتى إن تسلّقته فعلى حافّته أسلاكٌ شائكة، فلا تخرج منه إلا ودمُك نازفٌ وروحك مرهقةٌ وجسدك منهك.

هذا هو الحبُّ يا صديقي.

ووداعُ من تعشقه الروحُ من مستحيلات المحبّين.

ولكني تعلّمتُ شيئًا لم أكن أُحسنه قبل هذا كلِّه: أنّ من ترك شيئًا لله عوّضه الله خيرًا منه؛ ليس ليُمنع الحبُّ لمجرد كونه حبًّا، بل ليكون بطريقةٍ صحيحة، وليت أصحاب الهوى ممن تُنبّههم ضمائرهم أنهم في

طريقٍ غير مستقيم يتركونه، فيعوّضهم الله روحًا تسكن الروح، بابُها مفتوحٌ ولا يُتسلَّق سورها.

❖

سكت أحمد طويلًا، ولم يسألني هذه المرة أن أكمل.

كانت الشمس قد مالت على المدينة، وبدأ الأذان يتصاعد من بعيد، فقام ينفض عن ثوبه تراب التلّة، ثم قال وهو ينظر إلى الأفق لا إليّ:

. ولماذا عدتَ إذًا؟

. لأنّ سلمى أرسلت لي شيئًا.

. ماذا؟

. دفترها.

ووقف أحمد ولم يسأل أكثر.

ونزلنا من التلّة صامتَين، ودعاءُ تنتظر عند الباب.

وكانت قد أشعلت مصباح المدخل قبل أن يحلّ الظلام، كما كانت أمي تفعل حين نتأخّر.

فوقفتُ لحظةً أنظر إلى ذلك الضوء الصغير على الجدار.

ثم قلتُ لأحمد وأنا لا أنظر إليه:

ـ أتدري ما آخر ما تعلّمته منها؟ تعلّمتُه من ورقٍ لا من صوتها.

ـ ما هو؟

ـ أني كنتُ طوال تلك السنين أحبُّ امرأةً من صنعي، وأنّ التي كانت تحبّني واقفةٌ خلفها منذ أول يوم، تنتظر أن أُزيح ما كتبتُ وأراها.

فلم يقل شيئًا، ولكنه وضع يده على كتفي.

ودخلنا، وتركنا المصباح مضاءً.

❖

أما أنتِ يا روحي، ويا وطني الثاني بعد هجرتي، ويا دار تعليمي وتعلُّمي، يا أميرة قلبي؛ نعم، إنه أنتِ يا إلهام.

من أول نظرةٍ وقعت فيها عيناي بعينك كانت بوّابتي لعالمك البنفسجي، ولو يعلم عنترة عن حبّي لكِ لعجزت قصائده عن ترجمة مشاعري، ولو علم مجنون ليلى بالغرام الذي يزور روحي لما بكى ليلى ولهانت عليه مشاعره.

فأنا وأنتِ حكايةٌ خياليةٌ كتبت لها الأيام أن تلامس واقعًا يُعاش، له نظائر كثيرةٌ يعجز القلب عن البوح بها، فلم تجد هذه الحكاية مفرًّا من قفص الألم، فصنعت قنديلًا يضيء مستقبلها وعلّقته على جدار الذكريات.

حبٌّ لم يستطع أن يصافح القدر.

قرأتُ دفترَكِ يا إلهام كلَّه في ليلةٍ واحدة، وكنتُ كلّما قلبتُ صفحةً اكتشفتُ أني كنتُ أحبُّ امرأةً لا أعرفها؛ كنتُ أظنّني أعرفكِ لأني أعرف صوتكِ وحروفكِ، فإذا أنتِ كنتِ تخوضين حربًا وحدكِ وأنا أكتب عنها الشعر.

عرفتُ أنكِ جئتِ يوم الموعد، وأنكِ سمعتِ أمَّكِ تبكي، وأنكِ انتظرتِ حتى الفجر ثم قلتِ نعم.

ولو أنّ الدنيا تُعاد لعرفتُ أنّ أثقل ما حملتِه لم يكن حبّي، بل كتمانه.

وعليّ أن أعترف لكِ ببعض ما كذبتُ به عليك؛ كان كلُّ كذبي من شدة غيرتي، فمواقفكِ مع زميلكِ مروان كانت حقيقية، ولكن كان دوري كعاشقٍ أن أعظّمها في نظرك، وكان مجرد ذكره يشعل كلَّ جسدي بنار الغيرة.

وأعترف بأمرٍ أثقل: أنّ كثيرًا مما كنتُ أسمّيه غيرةً كان تملّكًا، وأنّ كثيرًا مما كنتُ أسمّيه نصيحةً كان أمرًا، وأنّكِ كنتِ تسمعينني وتسكتين، لا لأنكِ لا تعرفين الردَّ، بل لأنكِ كنتِ تدّخرين قوّتكِ لمعركةٍ أكبر لم أكن أراها.

إنّ ما عشتُه معكِ لا يُعوَّض أبدًا، فقد كنتِ كلَّ النساء بالنسبة لي؛ لم تكن أمي قريبةً لأقول لها خلجات روحي فكنتِ أنتِ السند، ولم يكن لي أخواتٌ أبادلهنّ الضحكات فكنتِ أنتِ السعادة، ولم تكن لي زوجةٌ لأستشيرها فكنتِ نِعمَ المشير؛ ومهما أطلتُ في ذكر النساء فقد كنتِ كلَّ النساء.

يا إلهام وريحانةَ قلبي، إنّ الفراق ليعزُّ عليّ وإني لأكتوي بنار البعد؛ ولقد عانينا كثيرًا من كسر النصيب لقلبينا، ولكن لعلّ النصيب كان مصيبًا، ولم يكن الله ليفرّق بيننا إلا وهو يعلم أنّ هناك ما هو أفضل لقلبكِ مني.

ولكن كما أني لن أنساكِ فلا تنسيني، وكما قال الشاعر:

ولئن غبتِ عن عيني وشطَّ بكِ النوى ... فأنتِ بقلبي حاضرٌ وقريبُ

خيالُكِ في وهمي وذكراكِ في فمي ... ومثواكِ في قلبي، فأين تغيبُ؟

ولصوتكِ في مهجتي لحنٌ خاص، ولا أُخفيكِ أني إلى الآن أسمعه ولا أدري من أين يأتي؛ أهو من خيالي؟ أم حقيقةٌ في نفسي؟ أم أنكِ تملّكتِ روحي فلم تعد تعرف غيرك؟ وأظنّ هذا الأخير هو ما حدث.

وكما وعدنا بعضنا أنّ الجنة هي موعدنا، فمن سبق الآخر إليها فليطلب حبيبه.

وسأبشّركِ بما كنتِ ستفرحين به لو سمعتِه منّي: أنّ الله رزقني امرأةً لا تعرفكِ ولا تعرف من هذا كلِّه حرفًا، تقوم على بيتي وتصبر على صمتي

وتضحك حين أتكلّم؛ وقد أحببتُها حبًّا آخر، ليس أقلَّ ولا أكثر، ولكنه حبٌّ دخل من الباب. وادعي لي أن أُحسن إليها، فإنّ من أساء إلى قلبٍ مرةً صار مدينًا للقلوب كلِّها؛ فلا تنسيني من دعواتك.

وداعًا يا حبيبتي...

وداعًا يا غزالتي...

وداعًا يا أنا...

وداعًا يا قطعةً من روحي...

وداعًا يا إلهام...

وداعًا حاليًّا.

ولكني سأنتظركِ هناك.

إلى الله نمضي، يا هنيئًا لمن سبق.

❖

من دفتر إلهام . الصفحة الأخيرة

سلمى، إن قرأتِ هذا بعد أن أُغلق الدفتر، فأرسليه إليه.

لا لأنّ فيه شيئًا يفيده، بل لأنّ فيه امرأةً لم يرَها.

رآني عينين في ممرّ، ورآني حروفًا في هاتف، ورآني قصيدةً كتبها ثم أحبَّ قصيدته؛ وأنا كنتُ طوال ذلك بنتًا تخاف، وتصلّي، وتغسل الصحون، وتضحك مع أختها، ثم تدخل الغرفة وتغلق الباب لتقرأ سطرًا.

ولستُ غاضبةً منه.

هو أفضل ما جاءني في تلك السنوات، وأسوأ ما جاءني؛ وكلاهما صحيح، ومن لم يفهم كيف يجتمعان فلم يحبّ بعد.

وأنا لم أختلف معه لأني أردتُ أن أنتصر، بل لأني أردتُ أن أُرى.

وقد رآني أخيرًا، ولكن على ورق.

واشترط عليّ يومًا أن نتوادع وداعًا يليق بما كان بيننا، ثم ساقني القدر إلى بيتٍ لا يليق فيه وداع.

فهذا وداعي يا سليم، ولم أملك غيره: ورقٌ لا صوت له، ولا يُخاف عليه أن يرنَّ في غير وقته.

يقول إنّ الجنة موعدنا، وأنا أقول: يا ربّ، إن كان في هذا الحبِّ ما يُغضبك فامحُه وأبقِ صاحبه، واكتب له امرأةً لا تتعب، ولا تُخبّئ اسمه في هاتفها، ولا تقف خلف عمودٍ في طابقٍ أخير.

واكتب لي بيتًا هادئًا، وقلبًا يهدأ.

وإن بقي في قلبي بعد ذلك شيء، فذلك بيني وبينك يا ربّ، لا بيني وبين أحدٍ من خلقك.

وأنا أعلم أنّ سليم سيقرأ هذا فيبكي، ثم يكتب عنه.

فليكتب.

ولكن ليكتبني كما كنتُ، لا كما أحبَّني.

«أحياناً لا نختار من نحب ..
بل يختارِ القلب، ثم يتركنا القدر لنختبر معنى الاختيار»

في "قنديل على جدار الذكريات" يأخذنا الكاتب يونس المليكي في رحلة إنسانية صادقة، بين دفء المشاعر وصدق التجربة، حيث يلتقي سليم بالهام في ممر عابر، فتبدأ حكاية لا تشبه سواها، حكاية تُكتب بالقلق والحنين، وتختتم بما لم يكن في الحساب، لكنّه كان في علم القدر.

رواية عن الحب، والاختيار، والندم، والأسئلة التي لا تنتهي .. وعن ذلك القنديل الذي بيقى مضاءً في زاوية القلب، ولو غابت الوجوه.

«من أحبّ حقاً .. لَا يمتحنّ»

«ربماً أتيت متأخراً ..
لكن بعض التأخر لا يُغتفر»

«هناك أشياء لا تموت ..
بل تسكن فينا، وتغيّر شكل الحياة»

هذه ليست رواية عن الفراق فقط ..
بل عن كل ما يبقى بعد الفراق. .